

الأديب المجمعي الكبير عبد الله مخلص

العالم الجليل والمؤرّخ المنصف

١٨٧٨ - ١٩٤٧

حكمت هلال^(*)

يُعدّ عبد الله مخلص من الرّوّاد الأوائل الذين تقدّموا الصفوف، وحملوا مشاعل العلم وأناروا الطريق للأجيال القادمة، فهو ينبوع ثرّ لا يغيض، وحضنّ بحر كبير لا ساحل له ولا قرار، نبغ في كثير من العلوم والفنون، فهو الكاتب والعالم والمؤرّخ والأديب، وقد حظي باهتمام كبير من العلماء والمؤرّخين والتراثيين، وأحلّوه في قلوبهم وعقولهم، ورفعوه إلى المحل الأعلى والمقام الأسنى الذي هو جدير به وأهل له.

نشأته وتحصيله^(١):

وُلد عبد الله مخلص في شهر المحرم سنة ١٢٩٦ هـ الموافق ٢٧ كانون الأول سنة ١٨٧٨ م في مدينة عينتاب بتركيا، موطن آبائه، وهو من أسرة جاءت إلى عينتاب من اليمن، واستوطنت فيها وتعرف بأسرة «شبحي خوجة زادة»^(٢)، واشتهرت بالعلم والثقافة وبما وهبت من الذكاء والفطنة. ويُعدّ رجالها من أركان

(*) صحفي وباحث سوري.

(١) خير الدين الزركلي «الأعلام» الجزء (٤) ص ١٣٤ بيروت ١٩٨٠.

(٢) خوجة: لقب لا يُعطى إلا للعلماء والفقهاء.

النهضة الفكرية في البلاد العربية.

جاء والده محمد عبد الله، وهو من ضباط الجيش العثماني، إلى حيفا ولم يكن عبد الله حينئذ يتجاوز الرابعة من عمره، ثم انتقل أبوه بأسرته مرة أخرى إلى جنين، وبقي فيها مدة حتى وافاه الأجل في ١٣٤٢هـ - ١٩٣٢م.

نشأ عبد الله نشأة دينية صالحة، وبدأ دراسته في مدرسة تدعى «المكتب الرشدي» في حيفا، وكانت هذه المدرسة جزءاً من جامع البلدة، وفيها استقى عبد الله أول معلوماته العلمية، وكانت تُعدُّ مدرسة عالية وقتئذ، مكّنت الطالب عبد الله - وهو الذي كان يتحلّى بالذكاء والفضيلة والرغبة في الدرس - من الإلمام بعلوم عصره والاطلاع على معارفه، فدرس اللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية دراسة خاصة، فأتقن معرفتها، وخبر خصائصها.

وفي سنة ١٨٩٩ أنهى دراسته، وعكف على تحصيل العلم بنفسه متسلحاً في هذا المجال بمواهبه وقدراته، ورغبته الشديدة في أن يكون علماً من أعلام الثقافة، فعمل بإصرار على التحصيل العلمي والإجادة فيه، فلم يدع عالماً أو أديباً أو مؤرخاً إلا اتصل به، وأخذ عنه، واستفاد منه، وكان يتردد على كبار العلماء في مدينة نابلس فانتفع بدروسهم ومجالسهم العلمية ومن هؤلاء العلماء:

الشيخ حسن هاشم مفتي نابلس، والشيخ داود هاشم عضو محكمة الاستئناف الشرعية بالقدس، والشيخ رشيد هاشم من كبار المدرّسين، والشيخ عبد الله صوفان الحنبلي، والشيخ موسى صوفان وغيرهم^(٣). وأخذ يجمع

(٣) راجع كتاب «تراث فلسطين» في كتابات عبد الله مخلص، طبع دار الكرمل، عمان (ص ١٤).

نفائس الكتب وأمهات المصادر، وانكبَّ عليها دراسة وتمحيصًا، وفهمًا وتحقيقًا، فجمع بين الدراسة التاريخية، والأدب والدين، وعكف على القرآن الكريم مدة يستظهره ويفسره. ولم يدع أحدًا لديه أثارة من علم إلا اجتمع به، واستوضح منه، وروى عنه. أما في الحديث فقد أخذ إجازته عن بعض الشناقطة المحدثين، ثم أخذ يميل إلى التخصص في دراسة التاريخ والآثار الشرقية، فجمع لها المصادر والمراجع، ولم يدع كتابًا مطبوعًا في التاريخ والآثار إلا حصل عليه، أو استنسخه، أو اطَّلَع عليه وأفاد منه، فاجتمع له - من ذلك كله - من العلم والدراية بهما ما جعله عالم دهره، ونابغة عصره، فارتقى إلى مصاف العلماء الكبار في التاريخ والآثار في العالم أجمع. وقد انتُخب عضوًا مراسلًا في المجمع العلمي بدمشق في جلسته المنعقدة بتاريخ ٣ تشرين الأول سنة ١٩٢٧^(٤).

أعماله ومؤلفاته^(٥):

أخرج لنا العالم عبد الله مخلص من الذخائر والآثار ما جعله من مفاخر النهضة الفكرية في العالم العربي، فكان من أبرز كتَّابنا وأدبائنا، وبدأت ثمار أعماله تنعقد وتينع، وآفاقه الرحبة تتسع وتغدق، وعطاؤه الثقافي والتاريخي يزداد ويخصب، وصار اسمه نجمًا ساطعًا بين مثقفي الجيل وعلمائه الأجلاء.

لقد أعطى الفكر العربي العديد من المؤلفات والدراسات العلمية والأدبية والفلسفية والتاريخية والسياسية، ودافع عن العلم والوطن دفاع

(٤) رسالة للدكتور عدنان الخطيب - رحمه الله - الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق إلى مكتبة الجامعة الأردنية مؤرَّحة في ٦ / ٨ / ١٩٨٥.

(٥) تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص، طبع دار الكرمل، عمان ١٩٨٦.

المستमित، وكان نتاجه العلمي في مادة التاريخ التي تخصص فيها وبرع، غزيراً وشاملاً، فضلاً عن مناقشته المتعددة في اللغة وآدابها، وفي الأخلاق والأصول وسائر الفروع الدينية. ولم تفته نظرية من نظريات العلم الحديث، سواء في الفلسفة، أم في الطبيعيات والفلكيات، والنشوء والارتقاء إلا واطّلع عليها وناقش فيها وكتب حولها.

وكان ينشر آراءه العلمية والفكرية في المجالس التي كانت تتعقد في داره، وتحفل بالعلماء والأدباء المتخصصين في كل لون وفن، فكان يُدلي بأفكاره وآرائه التي توصل إليها بعد مقارنتها بآراء الأقدمين ومقابلتها بصنوف علمهم ونواحي تفكيرهم.

وكانت لعبد الله مخلص صداقات حميمة، وعلاقات وثيقة بكثير من علماء عصره، منهم محمد كرد علي، وأحمد تيمور باشا، والعلامة أحمد زكي باشا (شيخ العروبة)، والعلامة الأب أنستاس ماري الكرمللي، والشيخ سعيد الكرمللي، والشيخ أسعد الشقيري، والشيخ عبد القادر المغربي، والعلامة عيسى إسكندر المعلوف، وأسد رستم وغيرهم كثير. ولاشك أن صداقات هؤلاء العلماء قد أفادته فائدة كبيرة.

وكان عبد الله مخلص يرأسل أصدقاءه المستشرقين، ومنهم الأب جوسين الدومينيكي ود. س. مرغليوث، وكارل بروكلمان، وبلوشيه وفريش كرنكو. وكان منزله يحفل بالعلماء، وكانت تجري بينهم مناقشات علمية لم ينقطع - على مرضه - عن المشاركة فيها حتى في السنة الأخيرة من حياته.

لقد ترك العلامة عبد الله مخلص ثروة من البحوث العلمية، والتحقيقات التاريخية، ستجعله خالداً في نفوس العلماء والأدباء والمفكرين، الذين يقدرّون

المواهب النابغة والإنتاج العقلي الرصين الذي يزيد في مزايا الثقافة الشرقية العربية، ويرفع من شأنها بين حضارات الأمم والشعوب.

فمن مؤلفاته:

- ١- تاريخ المسجد الأقصى: عرض فيه الأطوار التي مرّت بهذا المسجد بطريقة فنية لم تُعهد في كتابة التاريخ، وقد أوضح جميع الكتابات المرسومة على جدران المسجد، وصحّح كثيراً منها، مثل: إسناد بناء قبة الصخرة إلى الخليفة المأمون. طبع مجلة العرفان صيدا لبنان الجزء (٢) المجلد (٣٤) ١٩٤٧.
- ٢- تاريخ الخليل: وقد صوّى تاريخ هذا البلد مما علق به من أضرابيل الرّحالة الأميركيكان في حقيقة معالمه التاريخية.
- ٣- تاريخ صفد: استنبط من تاريخ صفد ما لم يستنبطه مؤرّخ قبله، إذ لحق تاريخ صفد الكثير من الغموض، والكثير من الإهمال.
- ٤- تاريخ بيت لحم: بيّن فيه معاني القداسة التاريخية التي زادت من قداسته الدينية.
- ٥- أعلام الإسلام في موطن الأنبياء: ذكر فيه أشهر مشاهير الإسلام.
- ٦- أدوات الحرب عند العرب: أبان فيه تطور الأسلحة العربية، وتفنن الشعوب العربية في صنعها وإعدادها، ومبلغ إتقانهم لها.
- ٧- أدوات الزينة عند العرب: وهو كتاب جميل في بابه يصوّر طرق وأساليب تحميل المرأة نفسها منذ أقدم العصور.
- ٨- ملابس العرب: ذكر فيه تطور أدوات صنع الملابس العربية، وتدرجهم في تطويرها في مضممار الحضارة، وسرد ما لها من صفات في لغة العرب وآدابهم.

- ٩- العاطفة عند العرب: أبان فيه فعل العواطف في الإنسان العربي بمختلف مراحل عمره وأطواره، وكيف تتحكّم العاطفة فيه وتوجّه سلوكه وتحمله على مراعاة العهود، وحفظ الذمار، والدفاع عن الجار. مجلة الرسالة عدد (٤٥٨) مصر ١٩٤٢.
- ١٠- أبيات العادات: أبان فيه العادات العربية التي دلّت عليها أشعارهم، ونظمها أدباؤهم.
- ١١- الثياب المنسوبة: ذكر فيه الثياب المنسوبة إلى بلدان خاصة بها، وما قيل فيها من اللغة والأدب، مثل «القباطي» وغيرها.
- ١٢- حَقَّق كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة». طُبِع في المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٢٤.
- ١٣- ترجم عن التركية سيرة السلطان محمد الفاتح، تأليف نامق بك كمال. طُبِع سنة ١٩١٠ المطبعة الوطنية في حيفا.
- ١٤- ما قيل في صفات البئر عند العرب، وأسباب الاعتماد على أوصافها في استنباطها.
- ١٥- رسائل الرسول.
- ١٦- أبيات الشعر المتعلقة بالمواطن والبلدان والأنهار.
- إن مؤلّفات عبد الله مخلص تقارب ١٦٦ كتاباً ومقالاً وبجثًا كتبها بين سنتي ١٩٠٩-١٩٤٧م حسب ما جاء في كتاب «تراث فلسطين» في كتابات عبد الله مخلص في الصفحة ٢٩٣. وله مئات المقالات المتفرقة في الجرائد والمجلات، مثل: جريدة الزمان، واللواء، والأسبوع، والترقي، ومجلة مجمع اللغة العربية، والعرفان، والمعرفة بالقاهرة، والمورد الصافي.

أسلوبه ووفاته:

تميّزت كتاباته بروح الإنصاف والموضوعية والجدّة، ولا سيما تجديد التاريخ في فلسفته وقواعده ومناهجه، وحفلت حياته بالإخلاص للواجب والتضحية من أجل العلم. وكان ذا خبرة واسعة، وعقل راجح، وإنسانية متفتحة، وخُلِقَ قوّم، فكان بمثابة الشمعة التي تُضيء لثنيير الطريق للأجيال المتتابعة، ثم تذوب وتنطفئ تاركة أجمل الأثر في نفوس الناس، لقد ودّع الحياة، وخبا إشعاع روحه الطاهرة، ونضب ينبوع إبداعه، وانطوت صفحات إنتاجه، وفقد المجمع العلمي بوفاته مشعلاً للخير والعطاء ومثالاً حيّاً للتراث العلمي العربي.

كتب عنه إسعاف النشاشيبي، رحمه الله، فقال^(٦):

«الجاحظ أعجوبة البيان، وعبد الله مخلص أعجوبة الزمان»، يعني بالزمان التاريخ، فأما في فضائله فليس لمخلص نظير، كان يمثّل السمو في أرقى معانيه، وهو على فضيلة من دينه، وعلى كمال من علمه وفضله، مما جعله نسج وحده، لا يدانيه كثير من ذوي المطامح إلى الرجولة الكاملة، وله من مواقف الفضل ما يدل على قلبه الكبير، ونفسه السامية، وتفكيره الناضج، ومن استوضح مخلصاً من آثاره ومؤلفاته عرف أن مخلصاً كان أمة وحده، جمع في نفسه ما تفرّق من خلال الفضل في كثير من الرجال، ونحن إذ نذكره بهذا الثناء نترك التاريخ يتمم ما عجزنا عنه من إيفاء الرجل حقه، فهو معين في العلم لا ينضب، ومصدر لمكارم الأخلاق لا ينفد. وفي شهر نيسان ١٩٤٧ أصيب بمرض الموثة (البروستاة) وأجريت له عملية غير ناجحة في المستشفى

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلدة (٢٣) ص ٤٥٧ وما بعدها.

الإفرنسي بالقدس، وظل يُعاني من المرض ثمانية أشهر^(٧).
 تُوفي الأديب المجمع الكبير في القدس الشريف يوم الثلاثاء الثالث من
 شهر صفر سنة ١٣٦٧هـ الموافق ١٦ كانون الأول سنة ١٩٤٧م. ونعت
 الفقيد الصحف والمجلات في فلسطين والعالم العربي. وُكِّت على قبره: هنا يرقد
 بسلام فقيه العلم والوطن، المؤرِّخ عبد الله مخلص المدير العام للأوقاف
 الإسلامية في فلسطين. برِّد الله مثواه وجعل الجنة مأواه. وُكِّتت على الضريح
 الأبيات التي رثاه بها الشاعر حلیم دموس وهي:

هذا ضريح سليل المجد والحسب وحارس العلم والأوقاف والكتب
 طوى الحياة كبيراً في شمائله يسقي التَّهَى بصفاء الكوثر العذب
 قد كان نبراس فضل يُستضاء به وكان نجم الهدى في «المجمع العربي»^(٨)
 وهكذا انطفأت شعلة كان لها سنا البرق، وأريج المسك، وحلاوة الأثر
 في النفوس.

وظائفه ومهامه:

تقلَّب في وظائف حكومية كثيرة، وما كان تأثيره خفياً في كل وظيفة
 أُسندت إليه، وقد أحرز رئاسات كثيرة في الأقاليم والدوائر التي مرَّ بها من
 البلديات والمصارف والإدارات العامة، وكانت له أعمال تجارية خلال سني
 الوظيفة، وهذه الأعمال جعلته كابن خلدون خبير الحياة عن كثب، وعلم أثر
 الناس في تصريف التاريخ، وصبغ الزمن بصفتهم. وكانت آخر وظيفة شغلها

(٧) من أعلام الفكر والأدب في فلسطين طُبِع في عمان ١٩٧٦.

(٨) أي المجمع العلمي العربي بدمشق الذي كان عبد الله مخلص عضواً فيه.

مدير الأوقاف الإسلامية العامة في فلسطين، تولّى إدارتها سنة ١٩٣٨، وبقي فيها حتى سنة ١٩٤٤. وله أحاديث قيّمة في الإذاعة الفلسطينية. وكان منزله في حي الشيخ جراح بالقدس عامراً بالمناقشات العلمية. وله في وظائفه عمومها مواقف يضيق القلم عن سردها في مجلة المجمع الغرّاء. ويكفي أن نعطي فكرة عن تاريخه المجيد في شخصيته العلمية، وتُرجى كل شيء عنه إلى كتاب خاص، كما نضرب صفحاً عن ذكر حياته السياسية، وهي حافلة بالأحداث الجسام، مليئة بالمواقف المحمّدة. وإن رجلاً فيه إخلاص مخلص، وقد عاصر الدولة العثمانية في عهدها: عهد القوة، وعهد الضعف، لم يتخلّ عن مظهره: مظهر العلم والإخلاص للوطن، ومظهر العقيدة الصافية، والإيمان المكين. إن رجلاً هذه صفاته لا بد أن يكون ذا تاريخ مجيد في الحياة السياسية، والمغامرات الوطنية. ولقد صحّح مقولة العلامة ابن خلدون^(٩): إن العلماء أبعد الناس عن السياسة قولاً وعملاً، ومع ذلك فإن مخلصاً جمع بين العلم والسياسة، ودلّ على أن العلماء هم الذين يُجيدون حيك النظم السياسية، وذلك بدافع الإخلاص في العمل والدفاع عن الحقيقة، والاحتفاظ بالوطن موئل الدين، وملاذ العروبة، وقبله الإسلام والإنسانية.

(٩) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٢٣) ص ٤٨٥ وما بعدها.

المراجع

- ١- الأعلام للزركلي ٤ / ٢٧٨ بيروت ١٩٨٠م.
- ٢- فهرس دار الكتب المصرية ٥ / ١٥٠ و ٣٤٥ طبع القاهرة.
- ٣- مذكرات فخري البارودي ٢ / ٢٩ - ٣٠ طبع دمشق.
- ٤- الكلية ١٥ / ١٥٣، ٣٦٩، ٣٩٧ بيروت.
- ٥- مجلة المجمع العلمي العربي المجلد (٢٣).
- ٦- المورد الصافي ١٤ / ٢٣٤ بيروت.
- ٧- تاريخ الصحافة العربية الجزء (٣) بيروت دار صادر ١٩١٤م.
- ٨- من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، طبع عمان ١٩٧٦م.
- ٩- رجال من فلسطين: عجاج نويهض طبع بيروت ١٩٨١م.
- ١٠- تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص، طبع دار الكرمل، عمان ١٩٨٦م.